الفصل التاسع

عاقبة نوارين

لم تكد لندن تسمع بالنصر الذى أحرزه الحلفاء فى نوارين ، حتى تعطف الملك فأنعم على السير إدورد كدرنجتن بالطبقة الأولى من نيشان الحمام الحربى . وقد أحرز هـذا الشرف بناء على توصية دوق كلارنس Clarence المشرف على وزارة البحرية فى ذلك الوقت . لـكننا نعلم من خطاب مؤرخ ١٤ نوفمبر سـنة ١٨٢٧ ، أى اليوم التالى لهذا الإنعام ، مرسل إلى كدرنجتن من صديقه السير جون جور Sir John Jore ، أن صاحب السمو الملكى قال :

« لقد اضطررت أن أكافح كفاحا شديدا لأتغلب على ما كان يتملك أعضاء اللجنة من إجحاف وعناد لا تستطيع أن تتصوره ، أستغفر الله بل تستطيع أن تتصوره من معاملتهم لك فى لجنة الإشارات . ولـكننى تغلبت عليهم ، وسأتغلب عليهم فى المستقبل إذا دعانى داعى الحق » ؛ و بعد أن أورد السير جون جور عبارة دوق كلارنس بنصها استمر يقول : « ثم أخبرنى أن الوزراء قد تحيروا فى أمرهم لما علموا بعملك المجيد ، وهو الاقتصاص من المسلم الغادر ؛ وأنهم لم يكونوا يتصورون أن هـذه النتائج فى حيز الإمكان ، وأنه قد وقعت بينه و بين المستر كاننج M. Canning مشادة كادت تؤدى إلى شجار عانى ، لأنه أرسل إليك السفينتين جنوا والبيون Genoa & Albion ، ولأن السفينة المسماة واراسپيت Warspite هى الآن فى طريقها إليك من غير أن يعرف بذلك مجلس الوزراء بصفة رسمية[1] .

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ١١٨ .

وإذا رجعنا إلى دائرة المعارف البريطانية وقرأنا فيها المقالة الخاصة بالسير إدورد كدرنجتن وجدنا فيها ما يأتى :

« لم تكن المعركة متوقعة فى إنجلترا ، ولم تكن النتيجة التى أسفرت عنها مما تغتبط به وزارة ذلك الوقت ؛ ولذلك اضطر كدرنجتن أن يكتب عدة خطابات ليبرهن على أنه لم يتجاوز الأوامر الصادرة إليه . ولكنه رغم ذلك استدعى إلى إنجلترا بخطاب مؤرخ ٤ يونية » .

ولو شئنا أن نتتبع كل ما جاء فى هذه المراسلات وما تفرع عنها لتشعب بنا البحث تشعبا لا حد له ؛ وحسبنا أن نقول إن اللورد ددلى Lord Dudley وزير الخارجية البريطانية وقتئذ قدم إلى وزارة البحرية فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٢٧ عشرة أسئلة وطلب أن يجيب عنها كدرنجتن إجابات دقيقة ؛ فأجاب عنها أمير البحر إجابات صريحة وافية تشرفه وتعلى من قدره . وكان من بين هذه الأسئلة أن وزارة الخارجية تريد أن تعرف هل المذكرة التى قدمت مع رسائل كدرنجتن هى المذكرة التحريرية الوحيدة التى أشير فيها إشارة صريحة إلى شروط الهدنة ؟ وهل بلغت هذه المذكرة إلى إبراهيم أو إلى أى ضابط آخر من ضباط القوة التركية الذين حضروا الاجتماع ؟ ولا حاجة إلى القول بأن الرد على السؤال الأول كان بالإيجاب وأن الجواب عن السؤال الثانى كان بالنفى . ولما كانت وزارة الخارجية قد ظلت مصرة على أن كدرنجتن جعل للشك سبيلاً إلى شروط الهدنة ، فإن هذا القائد أيقن أن قوة مركزه تتوقف على بيان أهمية عبارة « المدفع » التى وردت فى تعليمات اللورد استرتفورد ده رد كلف ؛ ولذلك أضاف إلى أجوبته عن الأسئلة السابقة مذكرة مصوغة فى العبارة الآتية :

« على أننى أرجو أن يسمح لى صاحب السمو الملكى القائد الأعلى للأسطول

بأن أغير على وقته أكثر مما أغرت ، فأشير أولا إلى ما جاء فى الأمر الثانى خاصا بالهدنة وهو : فإذا تحقق هذا الغرض فسيبلغك ذلك سفير جلالة الملك فى الآستانة مباشرة ، وقد تلقى التعليمات بأن يتصل بك ... الخ ؛ وستكون التعليمات التى قد تتلقاها ، والأوامر التى قد تصحبها ، والتى أرجو أن تعمل بمقتضاها ، موضع الاتفاق بين السفراء الثلاثة ؛ وسيكون واجبك أن تتفق مع القائدين الفرنسى والروسى على التدابير والإجراءات التى سوف يشير بها هؤلاء السفراء أو تقتضيها الظروف .

« و بعد أن أعملت الفكر فى النتائج التى يمكن بل يحتمل أن تترتب على تنفيذ هذا الأمر ، كتبت فى ١١ أغسطس إلى سفير جلالة الملك فى الآستانة أقول :

« ليس فى مقدور واحد منا أن يعرف كيف نستطيع أن نمنع الأتراك بالقوة من أن يسلكوا الطريق الذى يراد منا أن نمنعهم من سلوكه ، وأن لا نلجأ إلى الحرب إذا أصروا على ما يريدون . وليس ثمة سبيل يوصل إلى هذه الغاية إلا سبيل الحصر البحرى أو ما شابهه — و إذا أريد اختراق هذا الحصار بالقوة فلا يستطاع منع ذلك إلا بالقوة .

« وقد أجابنى عن ذلك بخطاب سرى تاريخه ١٩ أغسطس سنة ١٨٢٧ . . ثم جاءنى منه خطاب سرى آخر بتاريخ أول سبتمبر سنة ١٨٢٧ يجيب فيه عن سؤالى السابق بقوله :

« فنى موضوع الاصطدام مثلا قد اتفقنا على أن لا يكون الروح الذى تسيرون عليه فى تنفيذ تلك الأوامر روحاً عدائيا ، ومع أن الحكومات المتحالفة تقصد من غير شك أن تتجنب إذا أمكن كل ما قد يؤدى إلى نشوب الحرب ،

فإن منع وصول الإمدادات التى ذكرت فى التعليمات المرسلة إليكم يجب تنفيذه فى آخر الأمر بالمدفع ، بعد أن تستنفدوا جميع الوسائل الأخرى .

« و يستفاد من هذه الوثائق أن الواجب يحتم على أن أنفذ شروط المعاهدة بالنصح والإقناع إذا استطعت ؛ و باستخدام القوة الفعلية إذا لم أستطع . وهذه القوة قد عبر عنها المستر س . كاننج S. Canning بلفظ « المدفع »[١] .

ومعنى هذا أن كدرنجتن كان يتحدى خادما من أوسع خدام التاج البريطانى نفوذا وأعظمهم ميلا للنضال . وكان لورد استرتفورد ده ردكلف أو المستر استرتفورد كاننج كما كان اسمه وقتئذ ، عدوا وغر الصدر يؤكد ا . ف ملكولم اسمث E. F. Malcolm Smith أحدث مترجم له أن « الزهو لم يكن من رذائل السفير المتأصلة ، بل كانت عيوبه من صنف آخر . وقد ظل يندد بالترك و يقدح فيهم حتى أذلهم وأفقدهم كرامتهم فى أعينهم[٢] » . ومن كانت هذه أخلاقه لا يمكن أن يقبل من أحد ضباط البحرية أن يلقى عليه تبعة سفك الدماء دون أن يثأر لنفسه منه . ولا شك بعدئذ فى أن جواب كدرنجتن ، مهما بلغ من قوته ، قد أثار غيظ ذلك الرجل الدبلوماسى القوى ، الذى كان يسعى جهده لاستقلال اليونان ، ولكنه كان فى الوقت نفسه لا يرضى أن يسفك دم الأتراك ، ثم تلقى تبعة سفكه عليه .

وكان إبراهيم لا يزال فى المورة خلال هذه الأسابيع العصيبة ، التى كان كدرنجتن يلاقى فيها من رؤسائه كل عنت و إرهاق . وقد أبلغ القائد الروسى

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٣٢ .

(٢) حياة استرتفورد كاننج — لورد استرتفورد ده ردكلف تأليف ا . ف ملكولم اسمث ، لندن ، إرنست بن ١٩٣٣ ص ١٧٥ .

قنصله فى الإسكندرية فى الرابع والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٨٢٧ أن الأسطول التركى المصرى قد دمر ، وأن إبراهيم لم يستسلم بعد بل لا يزال فى داخل البلاد يدمرها ويعيث فيها فساداً . ونصح للقنصل أن يغادر الإسكندرية خوفاً من القصاص ، ولكنه مع ذلك أسرع بإضافة هذه الحاشية : « ولا تزال عشرون سفينة من سفن محمد على سليمة فى نوارين ، وهذا دليل على أننا حين دخلناها لم تكن لنا مقاصد عدائية » .

ولسنا نعرف الوقت الذى وصلت فيه هذه الرسالة إلى الإسكندرية ، غير أن المحفوظات الروسية تدلنا على أن السفينة المصرية المسماة واشنجتن قدمت فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٢٧ تحمل رسالة من إبراهيم ، يقول فيها إن ستين قرية قد استسلمت له ، وإنه ينتظر أن ترسل إليه تعليمات عن الحصر الذى ضربه الحلفاء ، وإن لورد كخرين قد أحدق بمسولنجى . وأقلقت هذه الأنباء بال محمد على ، وجعلته يخشى أن يقف الباب العالى موقف العناد ، فيأبى أن يتزحزح عن موقفه[1] . ومضى بعد ذلك حين من الزمن قبل أن يعرف أن أسطوله دمر فى ٢٠ اكتوبر . وكان أول ما فعله بعد ذلك أن أكد للقناصل والرعايا الأجانب أنهم آمنون ولا خوف عليهم[2]

وأبت الآستانة أن تعترف بأن تدمير الأسطول العثمانى معناه انتهاء القتال ، ومع ذلك ظل محمد على مخلصاً لمولاه . وفى الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٢٧ قدم إلى الإسكندرية رسول من إبراهيم يؤيد نبأ الكارثة البحرية ، ولكنه يؤكد أنه قد عمل على أن يتلافى آثار الهزيمة ، وأنه مستعد لمواصلة

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ١٣٤

(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٤٠ .

القتال . ولما قاربت سنة ١٨٢٧ على الانتهاء تجددت ثقة محمد على فى انتصار الجيوش العثمانية النهائى على الأعداء . وجاءه فى ١٦ يناير سنة ١٨٢٨ خطاب من إبراهيم يطلب فيه إرسال المدد لا سيما السفن ، وجاء فى خطابه أن جيشه فى ذلك الوقت يتألف من ١٢٠٠٠ جندى نظامى ، وأربعة آلاف من غير النظاميين ، وألفين من الفرسان ؛ وأن سليمان باشا (الكولونل سيف) قد احتل ترپولتزا بثلاثة آلاف من الجند ، وأن لديه من الزاد ما يكفيه أربعة أشهر[١] .

ولم يبق إبراهيم من غير عمل وهو ينتظر المدد ؛ بل تقدم نحو فليپوپوليس Philipopolis ، ولكنه لما شعر بأنه قد تعوزه المؤونة ، أعاد ألف جريح وعشرة آلاف من البحارة الترك إلى بلادهم ، كما أرسل إلى الإسكندرية أربعة آلاف وخمسمائة من العبيد[٢] . ولم ينكر عليه والده هذا العمل ، ولكنه لفطنته كان دائم الاتصال بنبض أوربا الدبلوماسى ، بينما كان إبراهيم يعنى بالوجهة الحربية المحضة من المشكلة القائمة وقتئذ . ويستفاد من المحفوظات الروسية أن المستر كرادك Mr. Cradock الذى كان يمثل وزارة الخارجية البريطانية فى مصر فى صيف عام ١٨٢٧ ، اتصل مرة أخرى بالوالى ؛ وكان يصحبه فى هذه المرة أحد أبناء أمير البحر كدرنجتن[٣] ، وأكبر ظننا أنه هو الشاب الذى جرح فى موقعة نوارين .

إن الأمور قلما تسير سيراً سريعاً فى بلاد الشرق الأدنى ؛ ولذلك ظل كرادك ومحمد على يبحثان عن سبيل للخروج من هذا المأزق حتى سقطت الوزارة البريطانية . وكانت نتيجة سقوطها أن تولى الأمر دوق ولنجتن

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٧٠ .
(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٧٦ .
(٣) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٨٢ .

Wellington ، وعرف الباشا من ذلك ومن خطبة العرش أن الحلف المعقود بين فرنسا وإنجلترا والروسيا أوشك أن يتصدع[١] . وإن تعجب من شيء فعجب أن يتتبع المصريون حتى فى ذلك الوقت تطورات السياسة البريطانية عن كثب . وكانت الفقرة التى انطبعت فى ذهن محمد على من خطبة العرش هى :

« وبينما نحن نعمل للوصول إلى الغرض الذى كانت ترمى إليه المعاهدة ، حدث فى ثغر نوارين اصطدام لم يكن جلالة الملك يتوقعه بين أساطيل حكومات الدول المتعاقدة وأسطول الباب العالى . وإن جلالة الملك ليأسف لوقوع هذا الحادث بينه وبين القوات البحرية لحليف قديم ، على الرغم مما أظهره الأسطول المتحد من ضروب البسالة . ولكنه لا يزال يرجو وهو واثق أن لا يتبع هذا الحادث المشئوم اقتتال آخر ، وأن لا يكون سبباً فى عرقلة المساعى التى تبذل لتسوية الخلاف القائم بين الباب العالى واليونانيين تسوية ودية ، تقتضيها من غير شك مصالحهما المشتركة[٢] » .

وقد أثار هذا التصريح مناقشة عامة اشترك فيها أعضاء مجلسى البرلمان . وإذ كنا نعلم من تقارير القنصلية الروسية مبلغ تأثر محمد على بخطبة العرش ، فإننا لا نخطئ إذا اعتقدنا أن الوالى قد تتبع هذا الجدال باهتمام عظيم . وكان ممن خطبوا فى مجلس الأعيان[٣] دوق ولنجتن ، ولورد هلند ، وإرل جراى ، ومار كيز لاندسدون ، وإرل ددلى ، والفيكونت جدريك . وخطب فى مجلس النواب مستر

(١) المصدر عينه جزء ١ ص ١٩٣ .
(٢) بورشير فى كتابها السالف الذكر جزء ٢ ص ١٧٨ .
(٣) المصدر عينه جزء ٢ ص ١٧٩ .

بروجام ، ولورد ألثرب ، ولورد پلمرستون وغيرهم[١] . وكانت كل ملاحظاتهم تدور حول لفظ « مشئوم » فقد قال اللورد هلند :

« لا يسعنى إلا إظهار الأسف لوصف موقعة نوارين بأنها حادث مشئوم » فأجاب دوق ولنجتن : « إنما قصد بلفظ « مشئوم » أن الحادث كان غير متوقع يدعو إلى الأسف . . . . ؛ ولست أقصد بهذا القول أن أطعن أقل الطعن على الضابط الشهم الذى كان يقود الأسطول فى نوارين ، أو أن أتهمه بأقل تهمة . كلا وألف كلا » .

على أن محمدا عليا لم يكن متحققاً كل التحقق من أنه لم يتهم ، ولذلك قرر أن يبادر إلى العمل فى أناة وتؤدة . وكان يعرف أن أسطوله قد هزم ، وأن إبراهيم فى داخل البلاد ، ولكن فى وسعه أن يعنى بأمره كل العناية ؛ لذلك رأى أن يترك الحادثات تكيف نفسها بنفسها ، وأن يحرص أشد الحرص على أن لا يقطع المفاوضات . وكان أكبر ما يهمه أن يرقب الأثر الذى يحدثه حصار الحلفاء فى مصير ابنه إبراهيم . وسرعان ما عرف أن لندن غير راضية عن الخطة التى اتبعت فى تنفيذ هذا الحصار ، وأن النزاع قد شجر بين القائدين الروسى والفرنسى . ويجب أن لا يفوتنا أيضا أن نشير إلى العلاقة الودية التى كانت بين النمسا و بين محمد على ، وأنه كان من مصلحتها أن يبلغه كل ما يقال فى الدوائر الدبلوماسية . ولا يبعد قط أنه سمع أن دوق ولنجتن كتب فى أوراقه الملحوظة الآتية منذ يوم ٣ مايو سنة ١٨٢٨ : « لقد حان الوقت الذى يجب فيه أن يبحث مجلس

---

(١) Lord Holland, Earl Grey, the Marquess of Landsdowne, Earl Dudley, Viscount Goderich; Mr. Brougham, Lord Althorp, Lord Palmerstone.

الوزراء فى أمر السير إدورد كدرنجتن وهل يستدعى أو يبقى حيث هو »[1] .

ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أبلغ كدرنجتن أن مجلس الوزراء لم يعد راضياً عنه ؛ وكتب إليه إرل أبردين Earl of Aberdeen قبل آخر مايو سنة ١٨٢٨ خطاباً مطولا بدأه بقوله :

« سيدى :

« بعد أن بحثت الأوامر الصادرة إليكم من صاحب السمو الملكى القائد الأعلى للأسطول بحثاً وافياً ، ووازنت بينها و بين الآراء التى تلقيتها منكم ، أرانى مضطراً مع الأسف إلى أن أبلغكم أن حكومة جلالة الملك لا تستطيع أن توفق بين الإجراءات التى اتبعتموها ، والتعليمات التى أرسلت إليكم ، و بخاصة ما أرسل إليكم منها بتاريخ ١٦ من شهر أكتوبر الماضى ، و إن كان ذلك يسوءها كل الإساءة . ولقد وصلت إليكم فى اليوم الثالث من شهر مارس سنة ١٨٢٧ التعليمات التى تضمنها خطاب مستر كروكر Mr. Croker إلى نائب أمير البحر السير هرى نيل Sir Harry Neale ، والمؤرخة ٨ فبراير سنه ١٨٢٦ ، وقد تسلمتموها على أنها أوامر نفذت ، ولكنها مرسلة إليكم للرجوع إليها إذا ما أعيد الموضوع على بساط البحث مرة أخرى . ولقد تبينتم من هذه الأوامر أن حكومة جلالة الملك لا تسمح بنقل اليونانيين من بلاد المورة إلى مصر » .

وجاء فى ختام هذا الخطاب الفقرة الآتية :

« و بعد أن فحصت حكومة جلالة الملك كل الظروف المحيطة بهذا الخطأ المشئوم فى فهم آرائها ونواياها ، رأت نفسها مضطرة إلى أن تكتب إلى صاحب

(١) أوراق ولنجتن المجلد الرابع ص ٤٢٣ منقولة عن بورشير فى كتابها السالف الذكر جزء ٢ ص ٢٤٥ .

السمو الملكى القائد الأعلى للأسطول تطاب إلى سموه الملكى أن يعفيكم من قيادة أسطول البحر الأبيض المتوسط »[١] .

ويلاحظ من هذا أن كدرنجتن لم يعزل من منصبه لأنه حارب فى موقعة نوارين ، بل لأنه عزيت إليه أغلاط ارتكبها بعد هذه الموقعة . ولا شك فى أن محمدا عليا كان يجهل هذه التفاصيل ، وأنه لم يكن يعرف إلا ما جاء فى خطبة العرش ، وأن أميرى البحر الروسى والفرنسى قد تنازعا ، وأن الشقاق قائم بين القائد البريطانى ورؤسائه . وقد اقتنع محمد على من هذه الاستنتاجات بأن الأمل بدأ يبسم لمصر ، وأنه مستطيع فى القريب العاجل أن يعقد الصلح بشروط حسنة . وإذا كان قد بقى مقتنعا بأن كدرنجتن قد أقيل من منصبه لأنه حارب فى موقعة نوارين « المشئومة » فإنه لم يكن هو وحده الذى هداه عقله إلى هذه النتيجة ، بل إن أمير البحر البريطانى نفسه كان أيضا من رأيه ، بدليل ما كتبه إلى دوق كلارنس فى ٢٢ يونيه من عام ١٨٢٨ :

« تسلمت بالأمس رسالة اللورد أبردين التى تعلن عزلى من منصبى . ولا حاجة لى بعد صدور القرار أن أدفع عن نفسى التهم التى بنى عليها ، بل سأنتظر حتى أجد من الوقت متسعا لذلك الدفاع . لكننى سأنتهز أول فرصة لأؤكد لسموكم الملكى أنى سأتمكن من أن أفند كل التهم التى تشتمل عليها هذه الوثيقة العجيبة ؛ وسترون سموكم أن ذنبى الأساسى هو موقعة نوارين ، وأن إلقاء تبعة النتائج الطبيعية المحتومة للمعاهدة على عاتقى كان خطة مدبرة ، أنجانى منها إلى ذلك الحين عطف جلالة الملك وعطف سموكم ؛ ولكنهم أسروها فى أنفسهم حتى لاحت لهم فرصة خير من الفرص السابقة[٢] » .

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر جزء ٢ ص ٣١٠ ، ٣١٢ .
(٢) المصدر عينه جزء ٢ ص ٣١٨ .

وربما كان مجلس الوزراء البريطانى قد أبطأ فى اختيار القائد الجديد . ومهما يكن من ذلك الأمر فان القائد الذى خلف كدرنجتن فى منصبه لم يعجل بالسفر بدليل أن أمير البحر الروسى وزميله الفرنسى قد اجتمعا ، ومعهما نائب عن كدرنجتن ، بابراهيم تجاه جزيرة مودون وتباحثوا جميعا فى الشروط الأولى للاجلاء عن عدة أماكن كانت تحتلها وقتئذ الجنود المصرية . وقبل أن تصل أخبار ذلك الاجتماع إلى الإسكندرية أبلغ القنصلُ الروسى نسلرودَ Nesselrode أن البريد الأخير الآتى من ملطة يحتوى على خبر عزل كدرنجتن وسفره القريب إلى لندن . « وكانت التهمة التى وجهت إليه أنه لم يتبع الأوامر الصادرة إليه بمحاصرة المورة والإسكندرية بعد موقعة نوارين [1] » وثمة أمر ثان تطلع علينا به المحفوظات الروسية ، وهو أن كدرنجتن ومحمدا عليا تلاقيا فى مساء اليوم الخامس من شهر أغسطس سنة ١٨٢٨ لتنفيذ الاتفاق الذى تم فى الاجتماع المعقود أمام جزيرة مودون فى ٦ يوليه [2] . ولا شك فى أن أمير البحر كان يحرص على إبرام شروط الاتفاق قبل أن يتخلى عن القيادة ، كما يتضح من خطاب كتبه إلى زوجه فى ٢٥ يوليه يقول فيه :

« ولما اتصل بنا ده هيدن De Heiden بعد ظهر اليوم عقدنا جلسة فى نادى ستوفن ، انتهت بعهد كتب صورته دتشكوف Datchkoff . . . ولما فرغنا من هذا العمل عدت إلى السفينة بعد الساعة الرابعة ، وانطلقت بها إلى نوارين حيث اتفقنا أن نقضى الليلة . وإذا جاء الغد ولم أدع إلى ملطة فسأسرع إلى الإسكندرية تنفيذا لاتفاقنا السابق ، لكى أعمل بنفسى وبقدر ما يصل إليه جهدى على تنفيذ

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٢٦٨ .
(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٢٧٩ .

الغرض الأول من أغراض المعاهدة[١] » ثم كتب إليها بعد ذلك فى ٣٠ يوليه يقول :

« إذا وقعت عيناى على أسطول الوالى فى عرض البحر وتمكنا منه ، أنبأتك عنه النبأ اليقين . ذلك بأنى فى هذه الحال سأنال منه غرضى وليعزلونى بعد ذلك متى أرادوا[٢] » .

وكان جون باركر John Barker قنصل بريطانيا فى الإسكندرية قد مهد لكدرنجتن سبيل مقابلة الباشا ؛ فسارت الأمور على أذلالها . وكان مما قاله أمير البحر قبل أن يجرى الحديث مجراه إنه يجب أن يدون كل ما يتم عليه الاتفاق ، لأنه حصل قبل ذلك شىء من سوء التفاهم ، سببه أن ما اتفق عليه لم يدون . فأجابه الباشا إلى ما طلب[٣] » .

ولنعد بعد ذلك إلى محمد على فنقول إن تدمير الجزء المهم من أسطوله كان ضربة كسرت من زهوه ؛ لكننا إذا صدقنا ما نقله القنصل البريطانى العام إلى الكابتن رتشاردس Captain Richards فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٢٧ أى قبل موقعة نوارين ، رأينا أن الباشا كان يسره أن تدمر بعض سفنه . وفى وسع القارئ إذا وضعنا أمامه خطاب مستر سولت Ms. Salt نفسه أن يجد فيه أن بوغوص بك ناظر الخارجية المصرية أشار إلى أن محمداً عليًّا مقيد مع الآستانة بقيود تمنعه من الاتفاق مع الإنجليز إلى أن قال :

« ثم قال بوغوص بك بعد ذلك إن الباشا مستعد لأن يتلقى نبأ تدمير بعض مراكبه ؛ بل بلغ من أمره أن فكر فى أن ضررا صغيرا يلحق به قد يكون

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ٣٨١ .
(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٨٣ .
(٣) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٨٨ .

ذا فائدة له عند الباب العالى ؛ وحتى إذا خسر أسطوله كله فإن ذلك لا يغير من عواطفه نحو الإنجليز . وهو يؤكد للقناصل والتجار أن أرواحهم وأموالهم ستبقى محترمة مصونة ، وأنه سيعمل على حمايتهم ويضمن سلامتهم ، حتى إذا أرسل إليه السلطان أوامر صارمة واختاروا هم البقاء فى مصر »[1] .

ومعنى هـذا أنه إذا كانت موقعة نوارين حادثا « مشئوما » فى نظر لورد استرتفورد ده رد كلف ودوق ولنجتن والوزارة البريطانية ، فإن محمداً عليًا قد رأى ما وراء بأسائها من نعمى ، إذ هيأت له فرصة طيبة تمكنه من أن يعقد الصلح مع الحلفاء ، ويلقى عن عاتقه ذلك العبء الكريه ، فلا يشقى لينعم الباب العالى . والحق أنه لم يكن أمامه وقتئذ إلا واحدة من اثنتين : فإما أن يقبل الشروط الشريفة التى يعرضها عليه كدرنجتن ، وإما أن يشـدّد الحصر البحرى على الإسكندرية ويُمنع المدد عن جيش إبراهيم . فقبل ما كان لا بد من قبوله ورضى بشروط الصلح . وكان من ضمن هذه الشروط أن تجلو قوات إبراهيم عن بلاد اليونان ويسلم الأسرى اليونانيون . وجاء فى محضر الاجتماع الذى كان يكتبه ياور كدرنجتن أن الباشا لما أظهر فى أثناء الاجتماع شيئاً من التردد فى قبول بعض الالتزامات التى تفرضها عليه المعاهدة : —

« قال أمير البحر إن المسئولية التى يتحملها هو كبيرة ، لأنه أخذ على عاتقه هذا العبء الخطير ، عبء المفاوضة فى ذلك الموضوع فى الظروف القائمة وقتئذ دون أن يعرف الشروط التى قد يصر الحلفاء على طلبها من الباشا ، وإنه لا يبعد أن يكون السفراء قد تلقوا تعليمات أخرى تختلف عما لديه ، وإنه وإن كان لا يشك فى أن كل اتفاق يتم بينه وبين سمو الباشا لا بد أن يقبلوه هم وحكوماتهم ، فإنهم

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٧ .

ربما لا يرضون عن سلوكه ، وقد يشنق من أجله عند عودته إلى إنجلترا »[١] .

لكن كدرنجتن لم يشنق عند عودته إلى إنجلترا ، بل تقول دائرة المعارف البريطانية : « إنهم قدروا خدماته فمنحوه الطبقة الأولى من نيشان الحمام و إن يكن قد حمل من غير شك أوزارا غير أوزاره إلى حد ما على الأقل » .

لكننا رغم أقوال دائرة المعارف نعلم أنه منح الطبقة الأولى من نيشان الحمام فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٢٧[٢] ، وأن ذلك الشرف لم تكن له علاقة بالمفاوضات التى أدت إلى عقد المعاهدة ، بل ناله من قبل أن تتمكن منه وزارة الخارجية فتزرى عليه انتصاره « المشئوم » . ولقد حمل أوزار غيره وظل يحملها لأنه أثبت أنه نفذ أمر اللورد استرتفورد ده ردكلف وهو إطلاق « المدفع » بنصه ومعناه .

وفى خلال الشهور الأولى من المدة التى كان فيها كدرنجتن يفكر فى موقفه ويطبق على نفسه ما جاء فى الكتاب المقدس : « وأما التيس الذى خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حيًّا أمام الرب ليكفر عنه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية »[٣] .

نقول بينما كان كدرنجتن يطبق هذه الآية على نفسه كانت قوات إبراهيم تجلو عن بلاد المورة ، وكانت سائر شروط المعاهدة فى دور التنفيذ . وفى التاسع من شهر اكتوبر سنة ١٨٢٨ وصل إبراهيم إلى الإسكندرية . ويقول قنصل الروسيا العام : إن « جميع المتصلين بالبلاط اغتبطوا برجوعه[٤] » ، وقد رجعت معه آخر فصيلة من قواته ، وكانت دلائل الصحة والنشاط بادية عليه ؛ كيف

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٩٠ .
(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ١١٥ .
(٣) اللاويين ١٦ : ١٠ .
(٤) قطاوى فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٣٠٧ .

لا والذى اجتمع به فى الخامس من شهر سبتمبر سنة ١٨٢٦ هو اللورد استرتفورد ده ردكلف لا أقل . وسنضع أمام القارئ نص ما كتبه السفير العظيم عن ذلك فى مذكراته ، لكيلا نتعرض للخطأ إذا نحن نقلنا معناه قال :

« وكانت وقفتى الثانية فى ثغر نوارين ؛ وكان هناك قائدنا البحرى (وهو غير كدرنجتن) ؛ وهناك قابلت أيضاً إبراهيم باشا ؛ وكان السكون العميق قد حل محل دوى المدافع وصليل السيوف ، حتى ليخيل إلى الملم بالأدب اليونانى القديم أن الشيخ نسطور قد نفث روحه الهادئ على حومة الوغى من موضع پيلوس Pylos القريب[1] . وكان أمير البحر ملكولم هو قائد الأسطول وقتئذ ، وكان وجوده واتصاله الودى بإبراهيم ممهدا للسلام الذى لاح أن مجيئ البعثة التركية سيعززه ويحققه . وقد انقشعت بذلك السحب الملبدة فى الجو ومهدت السبيل لعمل السفراء . ولم يكن إبراهيم شكسا بطبعه و إن اتصف بالخشونة فى المعاملة والتحال من معظم القيود فى ميدان القتال . وأذكر أنه زار أمير البحر بحضورى فى يوم من الأيام ، ولاقى من حسن الاستقبال وكرم الضيافة ما طاب له مجلسه ، فبدا ظرفه ولطفه ، ولم يعكر صفو الحديث شيء من ذكريات الحرب . ولما هم بالانصراف تبعته إلى باب غرفة السفينة ، فمر فى طريقه بمائدة مترجحة عليها بقية من المرطبات ، فأشار إلىّ بطرفه وتناول شيئاً مما عليها قبل انصرافه .

---

(١) إلياذة هوميروس .